تطور الوعي الديني في المشرق القديم

عبدالله خليفة

(٣ - ٤)

٨. الدين كوعي (وطني) متباين
يغدو الدين كفكرة مصوغة من قبل القوة الاجتماعية العليا فكرة قبلية و(مدنية) ووطنية، لأنه كشكل للوعي لم ينفصل عن وعي الجماعة، لكن يلاحظ الفرق الكبير بين الدين في المشاعية والدين في المجتمع المنقسم اجتماعياً، حيث كانت سمات الأمومية والخصوبة والتعاون تظلل آلهته، في حين تصاعدت جوانب القوة والعنف والهيمنة مع آلهة النظام الطبقي، مما يعبر عن تصاعد دور الدولة كجهاز قسر وتحكم.
وفي الفترة الأكادية التي يظهر فيها عنف الألوهية وشراستها، تبدو مرحلة مختلفة عن ألوهية العصر الأمومي الخصوبية، وعن المرحلة اللاحقة وهي التي ستنمو بالتضاد مع آلهة الساميين الرعويين الباطشة، والتي تغدو تركيباً من مرحلة الأمومية وصعود الإله الذكر المعبر عن مرحلة الدولة والطبقات، في توليفة متجاوزة للعهد (السامي الأكادي) وسيكون ذلك تجميعاً مشرقياً، وإن كان بصورة متفرقة، لإله الخصوبة وقد صار ذكراً، وتجلت فيه فعل الطبقات المقهورة كذلك، بعد أن كانت الصياغة الأساسية في المجتمع المشرقي الطبقي، من فعل الطبقات القاهرة.
لكن فعل هذه الطبقات المقهورة يتجلى من خلال إرثها الزراعي، حيث تتشكل الآلهة المقاومة المعذبة المتمزقة، وهو ما يعكس تغييب الفعل البشري في الطبيعة، وجعل ذلك في رموز متفردة مفارقة في نهاية المطاف، تزيل ملامح ما هو سياسي واجتماعي.
إن الدين لا يعبر فقط عن القاهرين بل عن المقهورين أيضاً، فالطبقات المتعددة ترى الإرث الديني بصور مختلفة، وقد عكست المرحلة التموزية على سبيل المثال، فعل الطبقات الشعبية، خلافاً للعصر السابق، ولكن القوة المسيطرة تقوم دائماً بالتسلل إلى البنية الدينية التي غدت شعبية فتوظفها لما لم تكن لها بداية، عبر نزع المضمون النضالي العميق لها، وتحويلها إلى أشكال عبادية مفرغة من ذلك المضمون، ومؤدية إلى التهدئة الاجتماعية والاستسلام. ولهذا سنجد في الميراث الديني عموماً هذين الجانبين المتضادين المتداخلين، جانبي المقاومة والاستسلام، جانبي الكفاح للتغيير أو تأجيل الأهداف إلى الغيب.
وإذا كان الجمهور، حسب وضعه التاريخي، لا يجد سوى المادة الدينية، فإنه سيقاوم داخل غيبها الموه، وسوف يكسر بعض المحرمات والمقدسات السابقة، ويشكل مقدسات جديدة يحرك بها التاريخ المجمّد، في امتيازات الحكام، وهذه اللحظة هي التي تنفث حرارة بنقد الظالمين، فترى إن التاجر لا يدخل من خرم إبرة حسب الإنجيل، وإن المرابين والمستغلين مدانون وإن للفقراء ملكوتاً قادماً، وبعدئذ حين يكون الدين في موقع تاريخي مختلف، وتتغير علاقته بالطبقات المتصارعة، وينتقل من التعبير عن طبقة مستغلة إلى التعبير عن النظام الاجتماعي، أو عن كل القبائل، أو عن الوطن كله، حينئذ تتبدل صياغاته وتستقر توجيهاته العامة في شكل تصالحي غامض، ثم تبدأ الطبقة المسيطرة، أو الطبقات المسيطرة، حسب المناطق والدول، في إعادة تشكيله ونزع مضمونه الثوري الذي تشكل في المرحلة الأولى، حين كان وليد الطبقات المقهورة.
ولكن عملية إعادة إنتاج الدين لا تتوقف، فهذا التكييف الفوقي، يقابله تشكيل تحتي، والأشكال الخارجية من العبادات التي تحاول الطبقة المسيطرة تحويلها إلى قيد اجتماعي للسيطرة اليومية والأهداف السياسية قد تتحول إلى شكل مضاد الخ..
٩- الزراعة كاقتصاد مهيمن
إن إسهام فرعي الاقتصاد الأساسيين: الزراعة والرعي في تطور المنطقة، يعتمد على عناصر مختلفة كاستئناس الحيوان وتطور الأدوات المعدنية، وهذه العوامل كبيرة الأهمية لكون عالم الزراعة سيبقى بلا تطورات جذرية، في حين إن استئناس الإبل والخيول وجلب المواد الحديدية، الذي سيكون من إسهام الأقوام الأكثر بربرية وهم (الهكسوس)، ملوك الرعاة، والذين جاءوا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وأحدثوا الكثير من الخراب كذلك، إن هذا سيؤدي إلى الفعالية الكبيرة للرعاة على حساب المزارعين. إن انتشار الحديد والخيل وتغلغل الإبل في الجزيرة العربية، سيروض المناطق الأكثر اتساعا وصحراوية في المنطقة، والتي ستتمتع باستقلالها شبه المطلق، في منطقتها الصعبة الوعرة، وقد حاول الرومان مرة واحدة غزوها في حملة فأصيبوا بكارثة.
لقد كانت الزراعة وتوابعها: الحرف والتجارة، هي سيدة المنطقة فيما قبل غزو الهكسوس، لكن القرون التي تلت بدأت تصعد أقوام الرعاة كالآراميين، المهدين الأخيرين للعرب جنساً ولغة.
وإذا كانت الزراعة لم تنفصل كلية عن الرعي في حقبها الأولى، وقد حدث الانفصال حين تمكن الرعاة من استئناس الحيوانات ذات الأهمية القصوى في تطورهم وهي الخيول والإبل، فإن الرعي لم ينفصل كلية عن الزراعة، فحين تتواجد الظروف المائية الكافية كان يمكن الجمع بين الاقتصادين، إلا أن الانفصال الكبير قد حدث، ووجدت الساحة الأكبر لتطور الرعاة، وهي الجزيرة العربية، فيما بعد مجيء الهكسوس.
ويلاحظ أن الممالك العربية الأمومية في شمال الجزيرة العربية، ثم الممالك السواحلية المتعددة في اليمن والحجاز والبحرين وعمان، كانت أقل رعوية من الداخل، وذلك بسبب نشوء المدن والزراعة. إلا أن العمق الرعوي هو الذي كان يتحكم في الحركة التاريخية للعرب، حيث لم تستطع أية مدينة أن تفرض نفسها على الرعاة الأشداء وعبر منطقة هائلة الاتساع. ويمكن ملاحظة بدايات التطور الحضاري لدى العرب الشماليين القيسيين، في مدائن صالح ولدى المناذرة والغساسنة والأنباط، وفي الشريط الحضاري للحجاز، والذي تناثرت فيه المدن التعدينية، حتى جاءت مكة تتويجاً لمخاض اقتصادي واجتماعي طويل.
١٠- الزراعة والفروع الأخرى من الاقتصاد
تشكلت المدن في المشرق من القرية الزراعية، التي كان المعبد ثم القصر شكلي التطور السياسي الديني المهيمن فيها، فمن الزراعة في المشرق الخصب تشكلت السلطة السياسية التي سيطرت على خريطة المدن والمجتمع، ومن خلال فائض الزراعة ثم الحرف والتجارة كانت تتشكل الحياة الاجتماعية والثقافية المختلفة.
إن الزراعة لا تمثل تشكيلة اقتصادية. اجتماعية ما، مثلها مثل الرعي، والحرف، فهي مهن وعمليات إنتاجية وتوزيعية متعددة، لكنها كانت حرفة واسعة، بل المصدر الأساسي للإنتاج، حيث تواجدت الأنهار الكبرى، وأنتجت أوسع الحقول الزراعية. وقد هيمنت الدولة هيمنة مطلقة، بسبب ما رأيناه من صعود سريع للأجهزة الاقتصادية والسياسية، فخضعت الحرف والتجارة للتطورات الزراعية مستفيدة من فيضها بل ومؤثرة عليها، إلا أنهما خضعتا لتطورها في النتيجة النهائية، فعلى طريقة توزيع الفائض الزراعي يتحدد التطور الحرفي والتجاري.
لقد كانت الطبقة المسيطرة تتسلم الفائض الزراعي بصورة عينية أو بصورة. عينية نقدية، ثم تركزت الفوائض بشكل نقدي شبه كلي في سيرورة التاريخ، حيث يمكن تحويل النقد إلى أية بضاعة أخرى. وعبر هذا التسلم تتكون مؤسسات الدولة، فهي ليست سوى خزانة لتراكم استغلال الفلاحين، وبعد الخزانة تتشكل المؤسسات التي تقوم بحسابها أو الدفاع العسكري عنها. ولا تلعب التجارة والحرف دوراً مستقلاً في تطوير الاقتصاد، فهما مربوطتان بفوائض الزراعة، التي تتحكم بها الخزينة الملكية، والتي تغدو مشروعاتها الاقتصادية والاجتماعية رهناً بذاتية الحاكم المطلق، أي بأسباب مرحلته، وأسرته، ورغباته، وأفكاره، وسنه الخ..
وهكذا فإن الزراعة التابعة للطبيعة تبعية شبه مطلقة، ستهيمن على الحرف والتجارة من خلال تحكم الأسرة الحاكمة أو القصر، مما يلحق هاتان المهنتان كذلك بالتبعية للطبيعة و(أقدارها). وكأن كل شيء سيتعلق بالحاكم المطلق (الإله). إن ذاتية الحاكم لا تنفصل عن طبقته، ومرحلتها وصراعاتها، وهي لا تلعب دورها الحاسم إلا من خلال هذه العوامل الموضوعية. وإذا كان الحاكم قد توحد بالإله، وغدا جزءاً منه، أو امتدادا أسرياً، أو تجسيدا نورانياً له، فما ذلك إلا شكلاً للسيطرة الشاملة للحاكم على المدينة و(الرعايا)، أو المملكة، أو الإمبراطورية الخ..
إن التجارة بالتحاقها بالقصر تكون قد فقدت قدرتها على تفكيك الملكية الزراعية العامة الشاملة. فرأس المال الكبير لا ينمو إلا عبر الأرباح المتراكمة وهي التي ستأتي من التجارة بالمواد المهمة والثمينة التي يستعملها القصر، ثم القصور الملكية المتعددة، ومن ثم بذخ الطبقة الحاكمة كلها من وزراء ورجال دين وتجار كبار الخ.. ولهذا فإن رأس المال لا يتعامل علمياً بالحرف وأدواتها وآلاتها إلا إذا كانت ستلعب دوراً في إنشاء قصر أو عمل مركز رصد للحاكم أو قبر الخ.. ولهذا فإن العلوم ستغدو مجموعات من المعارف المفككة، وليست مناهج علمية تغربل المعلومات المختلفة وتنميها.
١١- نمو الرعي في الجزيرة العربية
وإذا كانت الزراعة هي أساس تشكيل الفائض الاقتصادي الأساسي وتوزيعه، في المناطق الحضرية النهرية، فإن الرعي هو أساس تشكيل الفائض الاقتصادي الأساسي في المناطق الصحراوية. وعلى الرغم من أن الفوائض هنا قليلة ومحدودة، إلا أنها تظهر وتتدفق على المدن والأسواق. فالرعي لن يكون سوى ملحق أخير باقتصاد المدينة، حيث يسيطر الحاكم المطلق، وسيقوم بتبادل سلعه التي ينتجها من قطعانه مستبدلاً بها السلع الضرورية كالمواد الغذائية والملبوسات والأسلحة. ولن تلعب هذه الفوائض دورها إلا في المدن الصحراوية والقرى، التي ستمد الرعاة بالوسائل التي تجعلهم يتغلغلون أكثر وأكثر في الصحراء، خاصة رعاة الإبل، الذين عبرهم ستتم عملية الانتشار الأوسع في الصحراء، وخلق القبائل الأشد فقراً وتوحشاً. وسيبدو هؤلاء الرعاة الجماعات الأكثر تضاداً مع بذخ المدينة ومراكزها الكبيرة خاصة.
وكلما انتشر هؤلاء الرعاة، احتاجوا إلى المزيد من الأبناء الرجال، فتتسع قبائلهم ويشتد الفقر في مستوياتها التحتية، في حين ينفصل رؤساء القبائل والعشائر، ويكونون أرستقراطية خاصة، تشكل مصدراً آخر لاستغلال الرعاة، ويستطيع هؤلاء الزعماء أن يحولوا القبائل إلى شرطة سياسية وعسكرية واقتصادية للدول التي تريد خدماتها، أو لخفر قوافل التجارة، أو إنهم يتحولون بأنفسهم إلى لصوص وقطاع طرق فيشنون الغارات على القبائل الأخرى أو المدن العامرة بالثراء.
لكن لحمة القبائل لا تتفكك مهما كانت عمليات التخلخل الاجتماعي داخلها، ومهما ظهر الصعاليك والمتمردون، ومهما استغلهم رؤساؤهم، فالوحدة القبلية أقرب للتكوين البيولوجي منها بالتكوين الاجتماعي، فهي التي تكونت وتحجرت في الصحراء وقاست وصمدت لقسوتها.
إن القبيلة تغدو هي الرحم الطبيعي للفرد، ولهذا فإن القبائل عبر هذه الوحدة الصخرية تغدو قوى اجتماعية كبيرة منظمة في مواجهة مدن مستغلة ومفككة. إن القبيلة هي أشبه بوحدة عسكرية متنقلة، قادرة على الترحال والصمود في أقسى الظروف المناخية والاقتصادية، وهي قوة موحدة وقتالية جاهزة، وتمتلك مواردها واستقلالها الروحي والمادي، وهي لهذا تصبح قوة مؤثرة في مواجهة المدينة ذات المصالح المتباينة، خاصة عندما تبدأ مؤسسات المدينة في التفكك والضعف. وتصبح الأمور أشد خطراً حين تتآلف القبائل وتتحالف، وتكون قبيلة كبرى.
١٢- ظهور الرعاة على المسرح التاريخي
وقد تباينت التطورات الدينية بين القسمين الحضاري الزراعي والرعوي الجنوبي، مثلما حدث الانقسام الاقتصادي بين الجانبين، ولكن التكوينين لم يكونا متضادين بشكل مطلق، فالجانب الرعوي والذي يمكن أن يتحول إلى قرى، أو قد يسكن المدن فيتحضر، يتأثر بمنتجات المدن المادية والروحية، لكن هناك تباينات واسعة مع ذلك، فنحن نجد الهكسوس في احتلالهم مصر يعبدون الإله الشيطاني فيها (ست)، متوجهين إلى شبه توحيد، رافضين شبكة الآلهة المصرية المعبرة عن حشود من العالم الزراعي المسالم، وظهر التوحيد اليهودي بعد الانقلاب التوحيدي الاخناتوني ليعبر عن حلم هؤلاء الرعاة المشردين بتكوين دولة.
هنا نجد مثالاً ملموساً حول تضادات الأمم الرعوية والزراعية، فالقبائل اليهودية عبر توحيدها، تحاول أن تشكل سلطة سياسية وفكرية داخلها أولاً عبر الالتفاف حول إلهها (يهوه)، على الرغم من إنها لم تستطع بعد أن تتخلص من عبادتها لأيل الإله الكنعاني، وهو الصيغة الأخرى لآن الرافدي، الإله المتعالي الذي لم ينفصل كلياً عن بقية الآلهة المتشكلة في مناخ الخصب، فهو إله المدينة ـ الدولة، التي رأينا كيف ظهرت بالهيمنة على الملكية العامة الزراعية.أما يهوه فهو إله المدينة التي لم تتشكل بعد، أي إله الرعاة الحالمين بتشكيل دولة. وحين قام الإله بذلك عبر تشكل الدولة ومؤسساتها، نجد التوراة تشكو ملوك إسرائيل الذين لم ينفصلوا كلياً عن أيل وعن تقاليد المشرق (العربي) ذات التعدد الإلهي.
فقد عاد الإله الرعوي إلى منطقة أيل ذات الخصب الزراعي.
إن ظهور اليهود والعرب على مسرح التاريخ في المنطقة هو أحد المؤشرات على صعود دور الرعاة. وصحيح أن الرعاة كانوا قد ظهروا عبر عمليات الهجوم والاكتساح من قبل الهكسوس و (الكاسيين)، والعديد من المؤرخين والباحثين يقول أن اليهود والعرب هم من هؤلاء الغزاة، إلا أنه أول مرة نجد الرعاة جسماً اجتماعياً وسياسياً مستقلاً، وينبثق من داخل تكوين المنطقة، أي من مفرداتها الثقافية.
وتتمكن القبائل اليهودية من تكوين دولتين مستقلتين بعد قرون، إلا أن الدولتين اليهوديتين المقامتين لا تفلحان في الصمود على مسرح المنطقة، بسبب وقوعهما بين الدولتين الكبريين الرافدية والمصرية، هنا نجد الإله الرعوي يتحول إلى إله دولة من دون أن يستطيع الإفلات من تقاليد المنطقة.
لقد أوضحنا كيف انبثقت الدولة. المدينة في المنطقة الزراعية عبر نماذج العراق وسوريا، مما مثل وحدة صراعية بين الإله المتعالي الذكوري المسيطر وبقية الآلهة الذكورية والأنثوية، فهذه الوحدة يشدها قطبا دولة مسيطرة متعالية واقتصاد زراعي بتقاليده الأسطورية، مما يمنع الانفكاك بين قطبيها. إن آنو لا ينفصل عن تموز، وآيل لا يلغي بعل. ورع لا يزيل أوزوريس.
ومشكلة الإله يهوه إنه يحاول أن يلغي ايل بعد أن جثم في موقعه، لكون التميز اليهودي ومشروع احتلال فلسطين يصطدم بتواجد هذا الإله. وليس هذا بحسب بل إن كراهيته بعل أشد، حيث تتجسد التقاليد الطقوسية الفلاحية. وهو إله يسعى في ذله الطويل أن يعوض عن هذا الاستعباد والدونية، من دون أن يمتلك القدرات البشرية والمادية الكافية لكرامته. ولا تفعل سلسلة الأنبياء والمعجزات في تصعيد التكوين السياسي الزراعي، وفيما بعد، في عهد الأسر البابلي يعتبر ذلك التداخل هو سبب الكوارث والنكبات التي حلت على بني إسرائيل، من دون أن يخطر بباله إن وقوعه على طريق مرور الإمبراطوريات، ومحاولته التميز والتفرد الإلهي بقدرته البشرية القليلة في ذلك المكان هي أسباب كوارثه المتلاحقة.
(١) فصل من كتاب الاتجاهات المثالية في الفلسفة للباحث عبد الله خليفة الذي سيصدر قريباً عن دار المدى بدمشق.

ألقـــاب السلطـــان

اذا كان (كلكامش) بشراً من لحم ودم فان تمجيده طغى حتى على مدينة (أوروك) نفسها ، فقد تم تأليهه من خلال تنصيب الناس في ذلك الزمن السحيق لشخصه الهاً مقدساً ، وقاموا بتقديم القرابين تحت قدميه ، وامتد سلطانه المقدس ليمتد في عدد من المدن السومرية التي اعتبر ملوكها (كلكامش) بمثابة الآله الحارس لهم ولمدنهم.
وصارت القاب (كلكامش) العديدة تختص بشخصه وحده دون سواه من الملك ، فقد عده الناس ألهاً خارج حدود الخلق.
مع أن التاريخ يحدثنا برغبة الناس في إيجاد ند أو خصم قوي لكلكامش يخلصهم منه ولذا فرح الناس عند ظهور (انكيدو) ، وحين هلك كلكامش بعد ان فقد عشبة الخلود ، هتف الناس فرحاً بالخلاص من السطوة والجبروت التي كان كلكامش يحكم بها البلاد.
ليس اعتباطاً أن يطلق الناس على كلكامش لقب أبن الالهة ننسون الذي حملت به من ملك اوروك لوجال والمقدس والبطل الاسطوري والصالح وان ثلثه انسان وثلثيه اله.

زهير كاظم عبود

وأذ يستمر تلبس السلطان والحاكم ليس فقط ثياب الآلهة، وانما ربط الالقاب التي تطلق عليه بالديانات والآلهة، وفي العراق نجد أن جميع الحكام الذين مروا بتاريخ العراق القديم كانوا يستندون إلى السلطة الالهية ويحملون معهم القاباً تحمل بعضها صفات الالهة أو ابناء الله.
فالحاكم العادل والمنتصر بالله والمتوكل على الله والمنصور بالله والقاهر بالله والمتوكل بالله وخليفة الله ونائب الاله وظل الله على الأرض، ولنا في أستعراض الحكم الأموي والعباسي وماتلاه من دول بويهية وسلجوقية وخرفان بيض وسود وصولا الى الدولة الصفوية والعثمانية جميع سلاطينها وحكامها أستمدت ألقابها التي أطلقتها على نفسها كجزء من السلطة الالهية التي فوضتها حكم الرعية، وجميع السلاطين والحكام أتخذوا من ذريعة الدين ستاراً لإضفاء الشرعية على أعمالهم، وكونهم المكلفين دينياً شرعاً وأمام الله على قيادة وحكم الناس بما يحملونه من تفويض الهي لا يمكن لبشر أن يسلبه منهم مطلقاً.
ونموذج مثل الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق والذي كان يمثل الخليفة وأمير المؤمنين كان يذكر اسمه في كل دعاء قبل صلاة الجمعة أذ تدعو رجال الدين على المنابر تتوسل بالله أن يحفظ الطاغية الجبار والظالم وأن يمد بعمره ليبقى والياً عليهم.
ومن يملك هذه الصفات يملك الروح والمال والأرض، وليس اعتباطاً أن يكون الملوك الذين تعاقبوا على حكم العراق يحملون القاباً لصيقة بأسمائهم (الملك المعظم و الملك المفدى).
وانتشرت ظاهرة الألقاب في العراق بشكل خاص بالنظر لجسامة الأحداث التاريخية التي مر بها، ولقساوة السلاطين والملوك والحكام الذين تعاقبوا على الحكم، فكلما تزداد القسوة والظلم تزداد رغبة الناس في التمسك بالألقاب الالهية التي تطلق على الحكام.
وتميز العرب بشكل خاص بالتفنن في اطلاق الالقاب التي تخرج عن حدود البشر على حكامهم، فالظالم منهم هو الحاكم العادل، وسلطان الفجور يكون أمير المؤمنين وسلطان التقوى، والرئيس القاتل الفاجر يكون رائد العدالة ورمز الحق، والكافر المنافق الأثم يكون عبد الله المؤمن، والمجرم القاتل قائد النصر ومحقق الامال والقاضي الاول .
لذا لم يكن الهتاف الذي انطلق في بواكير الأيام الأولى لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق غريباً ينقل الزعيم عبد الكريم قاسم الى مصاف الالهة وليحمل القمر صورته، وأطلق الناس عليه الزعيم الأوحد والقائد الفذ والمنقذ والقاهر، حتى انتقل الى رحمة الله شهيداً مظلوماً لم يحظ بعدالة او محاكمة عادلة تليق بأي متهم ، حل سلطان جديد في عام ١٩٦٣ يحمل السيف بيده اليمنى وبالثانية دماء الضحايا تلطخ وجهه والجماجم تتعلق باردانه والناس تصفق له، وحين صار عبد السلام عارف رئيساً للعراق اطلق عليه وعاظ السلاطين صفات ليس بينها واحدة صادقة لتلصق به، من بينها الرئيس المؤمن والرئيس المحبوب ومفجر الثورات والرئيس العادل والسلف الصالح، وحين أحترق بحادثة الطائرة وحل مكانه وريثه الشرعي على العرش العراقي شقيقه عبد الرحمن عارف والذي التفت اليه المرحوم مجلس الحكم ليزيد من راتبه والحمد لله، فقد كان له صفات من بينها الرئيس الوديع وهو يسلط محاكم امن الدولة والمحاكم العرفية يسلب بها أرواح العراقيين، وأطلقوا عليه صفة الرئيس الهادىء والطيب وهو الممتلئ حقداً وطائفية وامتهاناً للعراقيين وانه خير سلف، وحين تم أسقاطه من قبل حلفائه البعثيين في عام ١٩٦٨ بانقلاب صار الرئيس الجديد البكر الأب القائد وهو الذي يقطر حقداً وسماً ويمتلىء بالعقد التي لم يستطع احد من المؤرخين أن يحصرها به، وصار الأب الحنون الذي يجز الرقاب ويذيب الأجساد ويسلط بمعرفته منظمة حنين التي تلاحق قيادات الحركة الوطنية في العراق فتسلب اعمارهم.
وحين صار البكر رئيسا صار شعار العراق ان الوطن تبنيه الجماجم والدم بدلا من الزهور والمعامل والرخاء وسعادة الانسان، وان الدنيا تتهدم كلها دون ان تتهدم السلطة وتذهب سلطة الرئيس، وحين صار البكر رئيسا كان الناس كلها تستعد لان تضحي بارواحها من اجل ان يبقى ملك الرئيس.
وحين كان البكر رئيساً هتف له وعاظ السلاطين بالروح بالدم نفديك (ابو هيثم)، وحين نتامل عمق الهتاف سنجد ليس فقط الاستعداد النفسي والقسري للتضحية والفداء في سبيل سلطة الحاكم، بل استعادة لفكرة التضحية من اجل ابن الاله المنقذ والمتسلط والموهوب والممنوح سلطة من الله والمحفوظ برعايته برغم ظلمه وكراهيته للشعب، ولم يمهلوه زمناً ليحرر فلسطين بل هتفوا انه غداً بالقدس سيخطب ابو هيثم، وبدلاً من القدس تمت احالته على التقاعد قسراً وأنقلب عليه صدام ليموت كمداً وحزناً على الملك الذي ضاع منه، ولربما مات بسبب عدم جدية الهتاف في خطابه بالقدس فنفق من حنقه وحقده دون ان يترك سوى تاريخه السيئ بالعراق.
وبالنظر للاستعداد الجماعي للتضحية من اجل الزعيم والحاكم فقد تم تطوير فكرة التضحية لتسويقها مغلفة بفكرة التضحية والدفاع عن العراق العظيم لتصير دولة المخابرات، ويتم تطويع الشباب لعمليات الاغتيال والتصفية من اجل العراق ومن اجل الرئيس المفدى.
وحين صار صدام رئيساً للعراق طرح لقب القائد الضرورة وعبد الله المؤمن وقائد النصر والسيد الرئيس وحفظة الله ورعاه وبطل السلام وبطل الامة حتى صارت القابه تضاهي أسماء الله الحسنى، ولا غرابة فهو جزء من الألهة يطرح نفسه متلبساً بمسوح ربانية وبأساطير تشبه الخرافات لينشر أفكاراً تفيد انه محمي من الله فلا مؤامرة تنال منه ولاحركة تستطيع اسقاطه، وانه مرسل من الله الى هذا المجتمع ليقوده من نصر الى نصر ومن سعادة الى أخرى لينتصر على أعداء الله أولاًوسيشيع العدل الموعود في المستقبل، ومن ثم يحقق المجتمع السعيد البهيج والمدينة الفاضلة وهو يصك على السلطة بأسنانه وأذرعه العنكبوتية وأرجله الأخطبوطية وأجهزته المخابراتية التي زرعها في مفاصل الجسد البشري في العراق.
وبقي رجال الدين يرددون بأصوات عالية متوسلين الى الله أن يحفظ الطاغية الجبار وأن يمد بعمره ليحكم العراق في كل صلاة جمعة أو في المناسبات الدينية حتى صار الدعاء جزءاً من المناقب الدينية، ولم تبخل الناس أن ترسل أفرادها لتفتديه كدروع بشرية كتعبير لحالة التضحية الجمعية للحاكم الظالم الذي كان يتقبل التضحيات برضا وسرور، وليس اخرها الأعداد التي تقفدمت لتضحي بأرواحها من اجل حماية قصور الحاكم وتصير دروعاً بشرية وحطباً للمحرقة برضاها .
وليس دون سبب ان يبق حتى اليوم من يهتف في العراق لصدام حسين (أن بالروح وبالدم وبالمال وبالأولاد نفديك ياصدام)، فهذا الهتاف ترديد لما سبقه من هتافات ابتداء من سلطة كلكامش ومروراً بحمورابي ونبوخذ نصر والأمويين والعباسيين وولاة المدن والحكام الفرس والرومان والترك والسلاجقة والبويهيين والصفويين والعثمانيين والإنكليز والملوك الحجازيين، وسلاطين الجمهوريات التي تعاقبت على العراق، وصولاً الى الإمبراطورية الصدامية التي أسقطها الأمريكان بعد أن نفضوا تحالفهم الطويل مع رائدها وقائدها وعمود بيتها.
وهذا الهتاف وعلى ندرته يمثل حنيناً جارفاً لسطوة الحاكم، وشوقاً لأن يكون بعض الأفراد تحت خيمة الظالم والطاغية، حيث يبدو أن حياتهم لن تستقيم دون ارتجاف مفاصلهم ورعبهم وخوفهم الذي أدمنوه.
وبقي لغز تقبل التضحية في سبيل السلطان الظالم مع تحسس مكامن الظلم والشعور بالرعب والخوف يكتنفه الغموض، بين معرفة الشخصية العراقية التي فككها وحللها الدكتور علي الوردي، والتي أسهب في دراسة مفاصلها وحركتها التاريخية المفكر العراقي الدكتور سيار الجميل، الا أن طقس التضحية الجماعية للناس قرباناً لبقاء الحاكم والسلطان في السلطة لم يكن وليد الأحداث المعاصرة الحديثة، بل كان له أمتداد عبر التاريخ الطويل الممتلئ بالنكبات والفجائع والمآسي والتي غالباً مايكون سببها السلطان الحاكم الفرد، والتي قد تأخذ اشكالاً مختلفة ومتنوعة جميعها بالضرورة تعبر عن القربان البشري للحاكم الذي يمثل لها امتداد سطوة الالهة أو جبروت السلطة الخارق.
وأذا كان الحاكم والسلطان على امتداد التاريخ لايشكل سوى قيادة الفرد للجماعة في لحظة تاريخية وهو بشر من ضمن المجموع، ويمكن استبداله ببشر غيره، غير أن الأصرار على أن تكون للحاكم مهمة أبدية خلقه الله من اجلها في بقائه على رأس السلطة، لذا ينبغي إبقاؤه أن لم يسلط فكرة ضرورته في البقاء في أذهان الذين يقعون تحت تأثير الفكرة أو من ضمن الدهماء من خلال فكرة الضرورة.
وقد يبدو ان تأليه الحاكم في العراق القديم له الانعكاس الواضح في استمرار الأضاحي والقرابين من اجل ديمومة الحاكم واستمرار سلطته، وليس أدل على هذا من إذعان الجماعة لقرارات الحاكم بقتل الرجال وإبادة المجموعات التي ترافق تقبل الجميع من دون ملل أو رفض بل يصل الأمر الى أظهار معالم الرضا والتأييد لمثل هذه القرارات بتعبير قد يبدو متناقضاً مع طقس الذبح والقتل، فلا يعقل أن يقوم الرجال بالقفز والأبتهاج والرقص لمقتل أولادهم، ولا يعقل ان تفرح امرأة وتزغرد لرؤية جثة ابنها مذبوحا بسكين الحاكم، ولايعقل منطقياً ان يتبادل أب التهاني لمقتل ابنه من قبل أجهزة السلطان، وتبدو أكثرها طرافة حين تتقبل عائلة الرجل الذي تم تنفيذ حكم الأعدام به رمياً بالرصاص في زمن صدام، بأن تدفع ثمن الرصاصات التي تمت بها قتل أبنهم، وأيضاً عدم تسليم جثث المعدومين أو المتوفين تحت التعذيب الى أهلهم وعدم معرفة قبور لهم حتى الوقت الحاضر.
ويقينا أن السلطان الظالم لو طلب من الناس أن تقدم له من يفديه بروحه لتقدم له العشرات إن لم نقل المئات، هذا القبول بالتضحية من اجل الحاكم يثير أسئلة عميقة في عدم تقبل الفرد بالتضحية من اجل العشيرة أو القبيلة أو الأهل مقابل قبول التضحية من اجل الحاكم.
وأزاء الأسماء التي ينتقيها الحاكم التي يطلقها على نفسه فأنه يتعمد أن يختارها من بين الأسماء التي يفتقر اليها أو يتناقض مع فعلها، وهذا الأمر يرتبط في مسألة تطويع الذهن الفردي في الاستمرار بالاعتقاد الخاطئ بحقيقة الأسماء المسبوغة على الحاكم.
ومن شبيه بزمن الحاكم صدام تنعدم فيه أية فرصة من فرص الديمقراطية يكون النظام مدعياً الديمقراطية، وزمن مثل هذا الزمن الذي يستعبد فيه الأنسان وتنسحق الكرامة الأنسانية يصير الحلم الذي يراود النفس العربية، والأنكسارات العسكرية المريرة تصير أنتصارات يتم الأحتفال بها، وزمن مثل هذا يكون الموت والقتل مسامات الحياة فيه يكون الفرح والرقص تعبيراً عن المسرة، وزمن تنتهي به قيم خلاقة وأصيلة وموروثة لتحل بدلها قيم هجينة وبذيئة يصير الزمن الضرورة والجميل الموعود، وهرولة للعودة الى الوراء والتخلف والفقر والأنحطاط يصير زمن الخطوات التي توصل الى السعادة والأشتراكية، وزمن يشيع الخراب والفرقة والهزال يصير زمن الوحدة والتوحد، وزمن تنتشر فيه دوائر المخابرات والأمن في زوايا البيوت والحارات وتحسب أنفاس الناس وعطاسها يصير زمن الحرية.
وليس اكثر من العراق من بلدان الأرض من صار تحت حكم الدكتاتوريات، فقد تعاقب عليه الطغاة منذ بدء الخليقة ولم يزل يتقاطرون مهما أختلفت ملابسهم وأشكال وجوههم، وأزاء ظاهرة الدكتاتورية يجد العديد من الناس خلاصهم وحياتهم في وجود مثل النمط الحاكم، على الرغم من مشاهد الذبح والدنس والظلم التي تجتاح الحياة في المجتمع المحكوم.
وليس بالضرورة ان يكون السلطان او الحاكم سياسياً متسلطاً على البلاد، إذ تنتشر ظاهرة السلطان والحاكم في قيادات العشيرة والحزب والبيت وربما المدرسة.
والألقاب التي يحظى بها الحاكم والسلطان لاتقتصر على ما ذكرناه أعلاه، اذ تتخصص نخبة من المثقفين والشعراء باستحداث القاب وصفات تزيد على ما قامت به الوعاظ من إطلاق ألقابها، ولربما استندت القاب الشعراء والمثقفين إلى نمط من الخيال الذي يتجاوز حدود العقل والمنطق لتجاوز حالة المعقول والمقبول من الألقاب المغايرة للحقيقة لدى السلطان.
وتيمنا بالسلطان تتسمى مواليد حقبة زمنية بأسمه، غير ان الغريب في الامر ان لا أحدا سمى الحاكم الدكتاتور بالطاغية أمامه، ولا احد ايضاً سمى ولده بالطاغية او الاسماء التي تسمى بها الحاكم، لربما حتى لاينافسه احد بها، ولربما لتفرده في استحقاق هذه الأسماء من دون غيره من البشر.
وربما تكون التضحيات التي يقدمها عدد من الأنتحاريين والمقاتلين في العراق نوعا من التضحية وأفتداء الحاكم تجسيداً لمعاني القرابين البشرية التي تفتدي الحاكم في العراق.